علي الجلاوي

اللّه بعد العاشرة

رواية سجين متقاعد

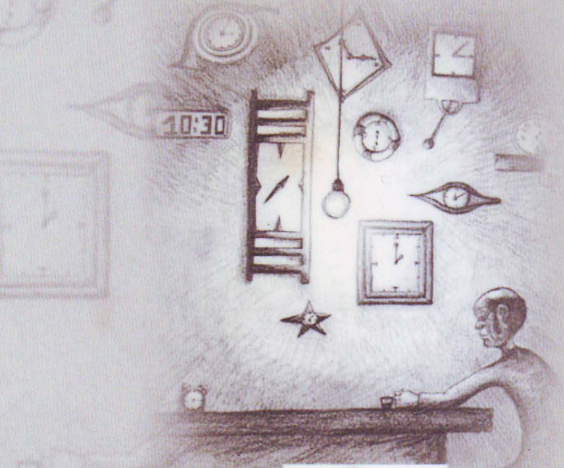

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

علي الجلاوي

اللّه بعد العاشرة

رواية سجين متقاعد

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

God after Ten

The Story of a Retired Prisoner

Ali Al-Jallawi

First Published in June 2011
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 497 - 2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: حزيران (يونيو) ٢٠١١

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

شكر	٩
الفصل الأول: «قلق وجودي متأخر»	١١
نورس بين الغباء والإيمان	٢١
الفصل الثاني: «مبنى أمن الدولة» اعتقال النورس الأول	٢٧
مرافعة النورس أمام البحر	٣٣
أقفاص لنوارس قد تولد	٣٧
محاولة انقلاب في قفص النوارس	٤١
نبوة نورس متأخر	٤٥
محاكمة لا تحضرها النوارس	٥١
أقفاص قديمة لنصف نوارس	٥٥

الفصل الثالث: سجن سهو
النوارس التي تعيش بالقرب من البحر ٦١
نزلاء بتهمة الطيران ٦٧
نورس يحتفل بزواجه الأول ٧١
الفصل الرابع: غيمة تدخل غرفة نورس ٧٥

شكر

إلى كل من الشاعر الجزائري بوزيد حرز الله، والقاصة التونسية بسمة شوال، على أناقة الاهتمام بالنص.

الفصل الأول

«قلق وجودي متأخر»

هل كنت أحب الله؟..

كنت أحبه. غير أن الله الذي يخصني يختلف قليلاً أو كثيراً عن الذي هو لكم. نعم ربما يختلف قليلاً، الله الذي أعرف لم يعد جلاداً، استقال من منصبه وتركه لمخيلتكم المريضة، خجل منكم جداً، كنتم تُدخلونه للحمام وتلبسونه الثوب الذي تخيطونه، وبأرخص أنواع الصابون تمسِّدون جسده.

نعم أحب الله.

لم يعد جلاداً يضع السلاسل في أعناقنا.. ويسحبنا، أو يقوم بوقر آاننا بحديدة من نار. صار الله قريباً جداً، صار صديقاً يجلس بجانبي، وقد يخطئ أحدنا في فهم الآخر، قد نغضب من بعضنا،

فيصالحنا حبٌ عابر كنبي أنيق.

كانوا يستشهدون بالمتصوفة في معرفته، هل كانوا يحبونه فعلاً، لدرجةٍ جعلوا منه أنثى! أنثى يشتاقون لها بشهوة مقدسة، ولها طقوسها كأي أنثى، يتحلّقون حول ذكرها، ينشدون لها الأشعار، ويصفونها بالرغبة والانفعال والوصل..

أيُّ لعنة تلاحقني، هذا الرأس جحيم أحمله، كلّما حاولت التنصّل منه أجده أمامي، يختبر تمرده الفذ أو الملعون، هل أنا ملعون لهذه الدرجة؟ أم أنني تعبت من الطقوس وأعطيت نفسي لتركها مبرراً بكل هذه التساؤلات؟

لكن فكرة الله تشدني، لم تزل تلامس أطراف شعري وتصل إلى جسدي، تضع مَلَكَيْهَا كما يسميهما البعض «حسيب ورقيب» بحراسة مشددة على فلتات ذهني.. مازلت أخافها.

كنت أعتقد بكل بساطة أن الله أراد أن يتفاعل في وعيه على مستوى مختلف، فكان الخلق نتاج رعشته الجسدية.

قال لي البعض إنَّ خوفك وارتباكك عائد لنشأتك وتكريس حياتك وتربيتك على هذه الطقوس وهذه المفاهيم. صدقاً ما عدت أعرف ما الصدق.. لم تعد الأشياء واضحة، أو خيارين فأتخذ واحداً يكون كما يقول أصحابنا «احتياطاً وجوبياً»، وذلك حين لا تكون مقلِّداً، أي لا تكون لك شماعة تضع عليها أعمالك، وتعطيك شرعية العمل الذي تقوم به، كونك غير مختص بهذا العلم؛ العلم الذي يدرس في «متن الأجرومية» و«رسالة عملية»

وبعض من «منطق المظفر»، هذا إذا أصابك نصيب من التوفيق الإلهي. وطبعاً تدرس مقدمات تنتمي لقرن فائت، أو قرن نسي دوره، حين يخبرك أستاذ في مدرسة الشيخ عبدالحسن عن كيفية تطهير أو نزف ماء من بئر، إذا سقط فيها فأر أعمى أو مخصي. كنت أجد صعوبة في تطبيق ذلك على نظام المواسير في البيت، هم يتكلمون عن زمن لم أعرفه، وربما يكون أبي المولود سنة ثلاثين لا يعرفه أيضاً. كيف أخبر هذا الأستاذ أني غير مرتاح لما يقول، كيف أقف في وجه من يريد لي الخير، بثواب الدنيا وحسن الخاتمة! لم أولد بكل هذه الهواجس، أنا متأكد من ذلك، ولكنها ولدت في نفسي كنبتة شيطانية.

- لم نعرف الأخ؟

تبرع أحدهم محاولاً فعل الخير، على طريقة أصحابنا.

- علي الجلاوي أحد شبابنا النشيطين

ابن ..... هذا، لا أعرف عن أي «نشيطين» يتكلم

- وله مجموعات خمس.

- أهلاً تشرفنا؟

هل يمكنني الحصول على بعض أعمالك؟

من هذه التي تلقي طلبها كأنها أنزلت مع باقي النبيين إلى الأرض؟ هل لها كتاب ووصايا أيضاً؟ أم هي النبية الجديدة المخلِّصة من

التمييز الجنسي ضد النساء، فتنهي الجدل في نبوة المرأة مقابل نبوة الرجل، معلنة ذلك أمام هيئة حقوق الإنسان بمبنى الأمم المتحدة. هذا الرجل النبي الذي كرّس حياته لفعل الخير، وإخراج الناس من الظلمات! هل تصلح هذه المرأة لشغل هذا المنصب، أو هذه المهمة المقدسة التي تحفها المعاجز؟

- نعم لدي نسخ من المجموعة قبل الأخيرة، سأحضرها المرة القادمة ـ إذا كنت هنا ـ.

ربما لم أكن معنياً بها قبل أن يقفز تفاح صدرها أمامي، حصانان ينفران عن جسدها.. يا الله لماذا تخلقهن بهذا البهاء، ثم تطلب منّا أن نغض أبصارنا؟ نحن بالنظر إليهن.. نذعن لكمال خلقك، وخصوصاً هذان الحصانان في صدرها.. حتى أنتَ في كلامك النبيل كنت تواعد المؤمنين بالكواعب، وبالحور العين، لأنك تعرف أننا مولعون أو ملعونون بهذه الآية التي لا ننوي أن نبرأ منها.

يا رب آمنت.. والله أمنت، أقسم برأس مَن لتصدقني؟ لمَ أشعر في قرارة نفسي بأنك تظنني غير صادق القول؟ آمنت بخلقك الناعم.. واعذرني إن كفرت ببعض الأشياء الصغيرة هنا أو هناك، ولا أعتقدك تأخذني بها، فقد كنت أتساءل عن علة خلقك لأبينا آدم قبل أمنا الجميلة حواء.. كانت لدي افتراضات عدة، إلا أن افتراضاً واحداً كان يراودني، ودعني أقول لك شيئاً قبل أن أخبرك به.. لكنك تعرف السر والنجوى، وتعرف ما نخفي، وليكن ... إذن عرفتَ الاحتمال الملعون الذي ظل يراودني.. فهل كنت فعلاً تتلافى الأخطاء بخلقك الثاني لأمنا حواء؟

الآن بعد أن عرفتَ أقول لك، إني لم أكن أقصد أنك أخطأت، فأنت لا تخطئ، سبحانك، لكني اعتبرت أنَّ وجود الخطأ ضرورة لمعرفة الصواب، أو ضرورة معرفية كما يسميها شقيقي الديري.

هل أخطأت بولعي؟

يا رب أعتذر عن كوني كما خلقتني، بي شهوة ورغبة ونفس أمّارة بالسوء، ولكني لست الوحيد، فحتى نبيك يقول: أحببت من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة. كم كان هذا النبي جميلاً كخال أميرة، وأنا أحببت من هذه الثلاث الطيب والنساء، أما الصلاة فاعذرني عنها، فلو أحببتُ الأمور الثلاثة لصرت كاملاً، ولأصبحت نبياً، وحاشاك أن تبعثني نبياً، وليس ذلك لخطأ ارتكبته يداك، ولكني لا أصلح لشغل مثل هذا المنصب، لذلك أعتذر.

كان عمر الخيام يقول: يا رب لأعصينك ثم لأعصينك لأعرف أذنبي أكبر أم صفحك. أبي ينطقها بطريقة جميلة، دراسته في إيران تخوّله نطقها بطريقة أهل طهران، وغنج أهل شيراز. نعم، الخيام قال ذلك ولم يضعوه في خندق الحداثة أو الكفر، كان عمر الخيام عارفاً فذاً.

ما الجدوى من كل هذا الحديث، بي شهوة لولوج امرأة، وأنا أتحدث عن الكون والوجود والمعصية! ليس مزاجي مواتياً، أرجوك يا رأسي اللعين لا تمارس إهانتك لشهوتي.. هذه المرأة أمامي أقسم لو أنها تحركت لانفلت فرس عن صدر ثوبها، لماذا تخفيه وتظهر أعلاه؟ ألكي تقوم بتحريضنا على اختلاس النظر؟ هل هذه فتنتك

يا رب؟ يقول كلامك وجب على المرأة الستر، وأن تضرب الخمار على هذه المفاتن، وصدقني يبدو أن هذه المرأة تتحداك، ولكنك قوي وستعذبها في النار أعرف ذلك، فهل سترفع من ذنوبنا القليل لأنها عذبتنا أيضاً؟

المرأة المرأة، أكان لا بد أن تخلقها؟ أهو أمر ضروري جداً أن تمارس العذاب متواصلاً؟ العلامة السيد فرويد، أعتقد الكثير يتصوره منحرفاً، ربما يكون منحرفاً أو أحب الغلمان، كما يقول صديقي المرشد الذي يسميها غلمنة.. وليكن كل ذلك، هو حُرٌ في أن يكون تحت أو فوق، ليس هذا هو المهم، هذا العلامة قدس سره الشريف، كشف خيوط اللعبة في أجسادنا، فنحن في نظره نقوم بأكثر أعمالنا تكريماً للمرأة، فتكريماً لمن خلقت المرأة يا رب؟

لماذا خلقتنا؟ ألتنزل بنا العقاب؟ و«إن منكم إلا واردها»، أم لتدخلنا الجنة وتهبنا الحور العين؟ إن كان خلقنا للأمر الثاني، فأعرني الحور التي لي في الجنة هنا في الأرض، يقول بعض علمائنا إن الله خلقنا لنعبده و«ما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون».

يا ربي يا ربي كيف يفسر هؤلاء كلامك الجميل؟ هل تحتاج لعبادتنا؟ فعلاً لماذا خلقتنا؟ هل كنت تشعر بالوحدة فأردت أن تستأنس؟ فدام فعل الخلق لديك ستة أيام ثم ارتحت في اليوم السابع، هل تعبت؟ فإن تعبت أعتقد أن خلق المرأة هو ما أتعبك، ربما احتاج إلى دقة أكثر. ولماذا ستة أيام، وأنت إذا أردت شيئاً تقول له كن فيكون! وكما يقول أسدك الغالب علي ابن أبي

طالب: قوله فعل منه أنشأه.

يا ربُّ ـ صدقاً ـ لمَ خلقتنا؟ إن كانت لديك نية بتعذيبنا؟ فلماذا تمتحننا وأنت في غنى؟ لماذا تريد أن تُعرَف إذا كان هذا السبب لخلقنا؟ ماذا يعني أن يعرفك البسطاء مثلي؛ وأنت بمعرفتنا أو دونها تبقى الله!، أيقظني الحديث الدائر من نزفي الداخلي، كنت موجعاً بصدر هذه الأنثى، ولكنها كانت مأخوذة بالحوار حول الأشكال والخروج على النص.

- سلوى، ألا تجدين أن القرآن وصمه معارضوه بالشعر؟ أليس ذلك مدعاة للتأمل؟ إذن العرب لم تكن تعطي سمة الشعر للشكل، فالكلام القرآني لا يخضع لنظام الشطرية أو ما يطلق عليه العمود، وهم بوصمه أو نعته بالشعر يضمرون القول بجوهرية الشعر..

نورس بيـن الغباء والإيمان

بعد العاشرة لم أكن واثقاً من مجرى الحوار معه، طلبت أمي مني اصطحابه إلى المستشفى، قال لي ونحن نصعد أو أصعده السلالم الأولى: لتكن سعيداً في حياتك يجب أن تكون غبياً أو مؤمناً. لماذا يصر على جس إيماني في كل مرة تسنح له ذاكرته.. لقد طرق التسعين، ولم يزل يتذكر كيف كان «صانعاً» لدى الناصري، كان يتقن الإنكليزية منذ «الكامب» البريطاني، ومن الأوائل الذين تعلموا هذه اللغة مع دخول الجيش البريطاني للبحرين.

لكن هل كان يعني ما يقول؟ ألدى هذا الخرف تصريح بالكلام عن الحكمة، أو حالة الإيمان التي لم يعرفها إلا في وقت متأخر من تذكرة تأمينه، يا ربُّ لم ترسل لي رسائلك بيد هؤلاء؟ ألا يوجد لديك آخرون يقومون بمهمة ساعي البريد لبعض نشاطاتك الجانبية!

نعم لست سعيداً، لذا.. على قياسك لست غبياً أو مؤمناً، يا جدي لا يوجد أمر لم يخضع لسوسة الشك التي تنخرني، ربما حسبتَ أني كافر أو منحرف، كما اعتقدت ذلك زهرة وشكتني شيخ دين ليحد من جموح سلوكي.. هه، طلب منها أن تطلعه على الأسئلة التي يدور حولها نقاشي، تصور يا جدي! يطلب منها معرفة ما أفكر فيه.. يخشى عليها من تفكيري، يحاول فهم قلقي الوجودي بمعرفة نوعية أسئلتي، هل يحاول هذا الشيخ إهانتي؟

- لماذا لا ترد عليَّ؟

- هل (حلّوم) في البيت؟..

- أنا أكلمك عن...، لا يهم..

نعم أمي في البيت..

□□□

ثوبها أبيض ينزل على ردفيها المتكورين كأنها راهبة، وهو اللئيم يدرك ذلك ويترك لها يده لتغرس فيها أصابعها جساً لباقي الحياة في جسده الهرم. الآن عرفت من أين دخلتني دودة الأنثى! وتقول له بغنج ممرضة محترفة: «أرخي أيدك حجي»، يا ابنة الإبر والشاش كيف يرخي وكلما اقتربتِ منه انتصبتُ أنا! ربما هو الإرث فأنا أنوب عنه في حمل ما لا طاقة له به من واجب في كبره.. سأخرج الآن.. أشعر بضيق.. هي لا تلقي طرفاً نحوي، كأنها تمعن في غوايتها.. حد لباسها الداخلي نافر عن طرف بنطالها، حتى حمّالة نهديها البيضاء المطرزة بالثقوب ترسم على صدرها

بعض الملامح التي دخلت في خطة الغواية المكرسة عليَّ، لماذا كل هذا التكريس عليَّ؟ لست أحتاج لأكثر من ابتسامة من فمها، حتى أعدل عن كل الآلهة.

الممر خلف هذا الباب الأحمق الذي لكز قدمي طويل، الناس مأخوذة بأمورها، تمشي على طريقتها في الهدى الذي تعتقده.. يذكرني ذلك بابني، حين توقظه زوجتي لدخول الحمام ليلاً خوفاً من فعلها في فراشه، وهو ابن الرابعة، تكون حمامته الصغيرة منتصبة، نعم منتصبة وهو ابن الرابعة، وعند انتهائه يقوم بالمسح على رأسها أسوةً باليتامى، يبدو أنها تؤلمه لذلك يقوم بالضغط على رأسها بإبهامه محاولاً إرجاعها عن الانتصاب.

كم هي شيطانية ذاكرتي، كلما حاولت الإفلات منها تجرني، أذكر أن ابن صديقة كان يروي بعض النكات عن حمامته غير الصغيرة بالنسبة لولدي، يقول إن هناك من يدخل الحمام ومعه مسدس، ثم يسكت قليلاً ليردف: أتعرفون لماذا؟ وقبل أن نرد، ويبدو أنه لم يكن ينتظر رداً منّا، يجيب: بأنها إذا طارت فسيصوّبها. كنّا نضحك بقدر يجعل من أمه اللبنانية زينب تخاف، فالضحك الكثير فأل شؤم كما تقول.

أشعر بتعب في روحي، كلما حاولت الإفلات من نوبة الكآبة التي تتسرب إليَّ أجدني رهيناً لسخرية قدرها، مشغول بهذا الوجود الغبي الذي يمشي إلى نهايته بكل أناقة، لكن.. هل سنتلاشى حين يقطع وصلة الفيض الخاصة بنا؟ هذا القلق يسكنني منذ مدة، كنت أعتقده أعراضاً للقليل من الوعي، كنت أعتقده نزوة الثلاثين،

أو مرحلة ملامسة بين الطفولة والرجولة، النقطة الفاصلة بين الموت والحياة، كان قلقي يتسلل إلي في أشكال مختلفة، هو نفسه عرفته الآن.. نعم هو ذلك السؤال الذي كنت أسأله والدتي عن وجود الله، كانت تشير إلى فوق.. يا أيها الذي يسكن في الأعلى، هل سنتلاشى لمجرد سهو عابر في أجهزة ملائكتك، أم لغضب منك فتقطع عنّا فيض وجودنا، مَنْ كل هؤلاء الذين يدّعون أنهم مبعوثون من عندك؟ هل كلهم أنبياء ومرسلون فعلاً، كل واحد من هؤلاء كان يدعي أن لديه الحقيقة، صرت أؤمن أن الحقيقة هي ألا نعرف شيئاً، أن نضع الأشياء في موضع خاطئ ونعتقد أنه مكانها.

عندما زرت الكعبة المقدسة كان بصحبتي ولدي.. فاجأني بسؤال لم أعرف إجابته.. على إثر حوار عابر، قال: أبي ما هذا؟ مشيراً إلى الكعبة. :هذا بيت الله، رد: فأين الله إذن؟ فأجبته: فوق.. سكت قليلاً كأنه يمعن في الرد.. ثم أردف: كيف يكون فوق ونحن ضيوفه؟

أفلاطون أسس جمهوريته، معتقداً أنها الجهاز الأمثل للبشرية، لكنه فقد عنصراً مهماً في هذه اللعبة، كان لا بد أن يصبغ آراءه بلمسة قداسة ليكون نبياً.. نعم يا جدي صرت أؤمن الآن بنبوتك وأنت تلقي آيتك الوحيدة «لتكون سعيداً يجب أن تكون غبياً أو مؤمناً»، يا أبتي سواء الذي في الأرض أو الذي في السماء، لم أجد ما أؤمن به، كثير من الأصنام هنا، وأكثرها صنمية هي الأفكار، نعم الأفكار، كل واحد يأتي ليضع نظاماً لهذا الكون، الشيوعية، المسيحية، اليهودية، الإسلام، البوذية.. كلها تريد رقي الإنسان، لتجعل منه آلة قتل من أجل هذه الخنادق من الأفكار المختلفة، كلها

تحرره من عبودية لتدخله عبودية أخرى، كم الأشياء التي كنّا نعتقد أنها تافهة هي أجمل من كل ذلك، حروب من أجل الدفاع عن بيضة الإسلام، حروب صليبية، غزو صهيوني، قتال على أحجار يطلق عليها البعض اسم معبد، فيما الآخرون يطلقون عليها اسم مسجد، باسم الكرامة يقتل أطفال في كل الأرض، ألا لعنة على كرامتكم وشرفكم.

لماذا نعاقب أجسادنا بكل هذه الهلوسات؟ نفترض أنها أنظمة صيانة تكفينا ويلات الانحطاط الأخلاقي، نتبادل التهم، أنتم شرقيون وأنتم غربيون.. يا أبناء النطفة والعلقة والمضغة، يا أبناء الخطيئة الجميلة التي لن يسترها ورق التوت ولو خصف عليها، يا أبناء يهوذا وموسى وعيسى ومحمد وبوذا، يا أبناء الحزن ومريديه، امنحونا لحظة، لحظة واحدة نتوقف فيها، فقد نسينا أن نرفع رأسنا، نسينا أن نبتسم في وجه أطفالنا الذين نهددهم بجهنم وغضب الله، حتى إن ولدي أخبرني أن الله غير موافق على لون سيارتي، لأنه ليس ملائماً لميوله..

أيقظتني من حواري، قالت: الساعة الآن بالدقائق والثواني وبعدها بالضبط، كم أحسدها على هذا التحديد الذي تمتلكه، لم تكن حائرة، كانت تعرف جيداً ما الذي ينبغي أن تفعله، تركتِ الحوار مفتوحاً كعادتها وخرجت بسرعة دون أن تغلق الحوار خلفها.

الفصل الثاني

«مبنى أمن الدولة»
اعتقال النورس الأول

قد تكون الثالثة أو الرابعة، أو قد تكون بين ذلك.. لماذا أحاول وضع توقيت واضح؟ ألا لعنة على الساعة التي تجبرني على تحديد حركتي ونومي وأكلي، كانت الساعة نقطاً.. أظنها أفضل بهذا الشكل.. أليس كذلك؟ قفزتُ أفرك عينيّ على وقع الطرق العنيف على باب البيت، أخذت أطلُّ من نافذة الغرفة على الباحة، كان أبي يهم بفتح الباب، فتحه بارتباك ظاهر، تدفقت جموع كثيرة من ذوي البدل الخضراء، وفي مقدمتهم أفراد يلبسون الثياب العربية، ويغطون وجوههم بالغتر البيضاء، اعتقدت أن الله بعث زبانية جحيمه، لم أعِ إلا وقد نزلوا غرفتي، ودون أي حديث يخفض من مستوى مكانتهم الروحية، فتّشوا كل شيء، نعم كل شيء، أعرف أين ذهبتم، لقد جسّوا نبضه فقط.

وجدت نفسي في غرفة باردة، بها طاولتان، ويجلس على إحداهما

دركي ينحدر من بلوش استان، عرفت ذلك من لكنة منحشرة في فمه، وعند العاشرة لم أكن واثقاً مما كان يجري، كان دمي قد نزل إلى الطابق الأرضي، ووعيي أخذ إجازة مرضية، كالتي كنّا نأخذها حين نتغيب عن العمل، خوفاً من قطعها من «المعاش».. هه، تأملوا جيداً في هذه الكلمة، المعاش، يمكننا فصلها بطريقة تناسب معناها الجوهري، فتكون «الما عاش».

أي تفوا عليكم، لن أعتذر أنا أيضاً، أعرف أني لست ثورياً بروليتارياً، أو قائداً شمولياً، ولا أحتاج لهرائكم الفج بعد الآن، لن أخرج من عبودية لأدخل عبودية تفسيركم.

أعرف أنكم ستحتقرونني، كما فعلتم بكل الذين أخبروكم بالحقيقة، حين غادروا إيمانها وغباءهم، وقد تطلقون عليّ رصاصة لاعتقادي أني أحرر نفسي، وأحرضكم على الفعل نفسه، وقد تصلبوني، ثم سيحاول أحدكم أن ينشر تعاليمي، صرت أخشى الحقيقة التي لا تحتملونها، صرت أعرفكم دون هوية حزبية أو لحية طويلة، أو حتى تاج يلاط على كتفكم، ليست لدي الرغبة في الموت من أجل تحريركم، لتدخلوا بعد ذلك عبودية أخرى.

لكني أقف أمام سطوة غبائكم، أمام نعوتكم الجاهزة لي، أمام خوفكم العاري على أمن مفاهيمكم ومعتقداتكم وإيمانكم، لست أهدد سلامة أنظمتكم الفكرية، ولا شأن لي في ما تقدسون من أصنام، بكل فرح أنا أحاول أن أتحرر من الصغار الكثيرين الذين يسكنونني، أو أحاول فهم حيزي العام بصوت عال، لذلك قد أسهّل عليكم المهمة.. ليست لدي مؤامرة أقودها ضد أحد، ولم

أطالبكم بسلطة، لدي مشكلة واحدة فقط، مشكلة لا دخل لكم فيها، مشكلتي أني لست مؤمناً ولا غبياً.

انتبهتُ.. لم يحرك خطابي العظيم أحداً! كانوا يذهبون إلى مكاتبهم، فيما ظل خان ينظر إليَّ وعلى وجهه حالة من الحيرة. بعدما أنهى حملقته في وجهي، نظر إلى صاحب المكتب بجانبي، لكن الأخير كان يواصل صف الأحرف في المربعات الفارغة كرأسه.. كان منهمكاً وهو يفكر بعمق، ولسخرية القدر عرفت بعد ذلك أن صاحبي خان لم يكن يعرف العربية، يبدو أن خطابي العظيم ضاع هباء.

بعدما أعادوني من المستشفى، للتأكد من قدرتي الجسدية والنفسية على التحقيق، أوقفوني حتى العاشرة ليلاً، كنت أزور الطابق الأرضي من جسدي أحياناً، أو أهز رجلي لأحرك الدم الذي انحاز لجهة واحدة، غير أن ذلك كان مكلفاً، فعلاوة على السلام المبكر من أيديهم الكريمة على مؤخرة رأسي، كان بمقدور ألفاظهم أن تمتحن الزمخشري في بلاغته، وصدقوني سيفشل الفقير في الامتحان بسبب نقص خبرته.

خلعوا العصابة من على عيني، يجلس أمامي رجل في عقده الرابع، له سحنة سمراء، وعلى جانبيه يقف أشخاص آخرون، قال لي: أتعرف أين أنت؟ أجبته لا. قال أنت في أعلى مكان.. أعتقد أنه كان محقاً فقد كنّا في الطابق الثالث أو الرابع من المبنى، لكن ما دخل ذلك بأمن الدولة؟ أخذ القلم وكتب على ورقة صغيرة كلمة الله، رفعها ليريني إياها، قائلاً: ما هذا؟ تحرك رأسي إشارة إلى فهم

الكلمة، ثم وضعها في الدرج وهو يقول: أين الله الآن؟ وحين شدهت ولم أجد إجابة بادر: الله في الدرج وأنا هنا الآن. ثم سألني: هل تعرف من أنا؟ لم أجد جواباً أيضاً، لم أعرف إن كان هو الله، أو أحد آخر في دوره، أخرج من دُرج طاولته مسدساً ووضعه عليها مردفاً: «في الخارج الناس مشغولة بالأحداث، يمكنني قتلك ورمي جثتك في الزبالة، صدقني لن يسأل أحد عنك، لذلك اعترف».

هذا ما أذكره، أو هذا ما أعتقده حدث، فبعد ذلك لا أذكر الأشياء بصورة واضحة، غير أنهم أقاموا لي مأدبة فاخرة لمدة ستة أيام متواصلة، لا أنعتق منها إلا وقت الأكل، أو حين يقومون بتمشيتي خوفاً من تورم رجلي. بقيت صامتاً في اليوم الأول لأقل من ساعة، بعدها نزلت في نوبة هستيرية، أصبحت غير قادر على إدارة مستوى صوتي الذي بدأ في انهمار وصراخ عال، كنت أشتم نفسي وأشتمهم، وكانوا بدورهم يحاولون إسكاتي بالضرب، لكنهم اكتشفوا طريقة أفضل لذلك، إذ وضع أحدهم جواربي في فمي، وأغلقوه بعصابة العينين، أذكر أن من حقق معي اسمه عادل، وفي الحقيقة كان اسمه لا يشبهه بالمرة.. عرفت اسمه من خلال حديث دار بين دركيين، كان أحدهم يقال له عبدالنبي في منتصف عقده الأربعيني، والثاني سفيان من أصل باكستاني كان لا يزال في العشرينيات، شاب وسيم له شعر طويل يصل إلى كتفيه.. هذا السفيان لديه فوبيا اسمها عبدالنبي، فقد حاول عبدالنبي في أكثر من مناسبة أن يجعل من علاقته بسفيان حميمة ودافئة، لكن سفيان امتنع ولوح بإعلام الرائد عادل.

مرافعة النورس أمام البحر

في اليوم السادس أدخلوني على شرطي مدني ينحدر من أصول أردنية تنزل عن لسانه كل شتائم الدنيا، اسمه «شتّام»، كان ألثغ في الراء بصورة فاضحة، أعطاني إفادة مكتوبة بخط يده، قائلاً: (امض هنا، وإلا أعدتك لحفلة الأنس). أخذوني بعدها إلى قاضي الاعتراف، هذا ما يطلق عليه، لأن مهمته التأكد من موافقة الموقوف على صحة الإفادة. بعد جلوسي أمامه ربع ساعة، أثناء قراءته إفادتي سألني سؤالاً واحداً: «هل هذا توقيعك؟» وهو يشير إلى اسمي في ذيل الإفادة، فقلت نعم.

لست بطلاً أسطورياً، ولم أخرج عن دائرتي الإنسانية، أنا من وسط أبناء العامة، أنتمي لنفسي، ليس لدي لقب يتقدم اسمي، ولا أحس بوجع تحرير العالم من أزمته، أو لدي ميول للتأكد من سلامة ثقب في السماء، قد تنزل منه ملائكة الجحيم على رؤوسنا

كما يقول البعض، بالنسبة لي هذه ثرثرات أدت إلى صنع مجازر كثيرة، سواء باسم الفتح أو سمو عرق ما على أعراق أخرى، أو امتلاك حقيقة تصادر الآخرين.

نعم، أنا فخور بكوني هجيناً، لا أنتمي لطبقة صافية، أو حتى لعرقٍ صافٍ، أو قبيلة يمكنها أن تمدني بكرامتها، فيما تفرض على الآخرين سلطتها بالإكراه. بالنسبة لي أنا ابن النواة الأولى، التي قد تعدّها الطين، ومن هنا أبدأ كإنسان، وليس من خيمة القبيلة، أو مكتب المرجع الديني، أو حتى من انتمائي للعرق السامي، وإن أحببتَ فأنا من فصيلة قناديل البحر، التي قد تحتاج لأكثر من ألف وأربعمائة سنة لتدرك هذا القنديل داخلك، قناديل البحر التي تنتمي للماء، هناك فارق زمني بين الماء والصحراء.

لكنه ببرود أشار بيده إلى الواقف خلفي، فأرجعني إلى مبنى الرب عادل، الذي أنزلتني ملائكته من أعلى مكان كما يقول، إلى توقيف من أربع غرف، يرقد تحت مبنى الاستخبارات «العامة الوطنية»!، زجوا بي إلى غرفة تقع في آخر الممر، كانت باردة لدرجة لا تطاق، الرطوبة ورائحة العفونة تتسرب من أغطية السرير الملطخ بالقيح والدم، بعض التواريخ ترقد بسلام على الحائط الرمادي، كتابات تشير إلى أشخاص مروا من هنا، سمعت أصواتاً تهمس من الغرف المجاورة، كان أحدهم يسأل عن النزيل الجديد الذي أدخل الزنزانة، فعلاً من هو الجديد الذي أدخلوه الزنزانة؟ هل هو أنا؟ ومن أنا أصلاً؟ استلقيت على السرير الذي تقوّس لدرجة مفرطة، أحسست بظهري يلامس الأرض، ثم استيقظت على صوت الحارس وهو يدخل طبق الأكل، وكأساً معدنياً من الشاي،

انتبهت إلى الأشياء حولي، كانت غرفة من غير نوافذ، غرفة استخبارية بامتياز، لم أعرف في أي وقت من اليوم أنا، لكن نوعية الأكل حددت لي ذلك، كان صباحاً، عرفت ذلك من الباقلاء المغطى بطبقة سميكة من الغبار والأوساخ، وبرميل الشاي الذي نطلق عليه اسم «بالدي»، وهي كلمة هندية تعني الكأس الكبيرة، عادة تستخدم كإناء للاستحمام، يبدو أني نمت لأكثر من أربع وعشرين ساعة، سمعت نفس الأصوات في الجوار وهي تهمس بسؤالها حول المقيم الجديد، نعم أنا المقيم الجديد، أنا السيد الذي ينزل من «أعلى مكان» إلى هذه الغرف الرائعة، الغرف اللاتي يضربن على جيوبهن «لا نوافذ»، أنا الذي أتيت من فصيلة قناديل البحر كما يقول «رايش»، ماذا تريدون مني الآن؟ دعوني في قيلولتي الواقفة على كف عفريت، دعوني آخذ نقاهة من الأسئلة.. لكن السؤال يتكرر بإلحاح، كان نفس السؤال وبأكثر من صوت وطريقة، فرددت على سؤالهم بأني علي الجلاوي، قفز صوت آخر من إحدى هذه الغرف: جلاوي!! كيف أنت؟ عرفت الصوت، هذا صوت سامي الشرس، لكن سامي! ماذا يفعل سامي هنا، لقد تركته في المدرسة عندما كنّا في المرحلة المتوسطة.

أقفاص لنوارس قد تولد

كان في الغرف المجاورة شباب من منطقتي، لم أكن أعرف إلا اثنين منهم، الأول سامي الشرس، والثاني حمزة أما الباقون فقد ميزت منهم طاهر وحسين وعبدالرزاق. سألني عبدالرزاق ماذا سيفعلون بنا الآن؟ لم تكن لدي إجابة لكني أخبرته: لا شيء. كان صوته يريد أي إجابة، وبما أني صاحب الخبرة مقارنة بهم، وذلك لاعتقالي أول مرة في السابعة عشرة من عمري، فقد اعتقدوا أني الوحيد القادر على إجابتهم، سألتهم عن التهم الموجهة لهم ـ ويا لسخرية القدر وإمعانه في لعبة المؤامرة ضدي ـ كانوا يجهلون تماماً تهمهم. لكنهم مثلي وقّعوا على إفادات صاحب لثغة الراء، قال لأحدهم: «أعتغف يا ابن القحبة، لا أخليك عبغة للآخغين».

في الليل سمعت طرقاً على باب الغرفة المجاورة، سمعت الشرس

وهو ينادي الشرطي، عرفت من الحديث الدائر أنه مصاب بحالة احتلام، لذلك يحتاج لغسل نفسه من التهمة الجديدة، وآثارها المنتشرة على ثيابه، لكنه عاود الطرق صباحاً قبل الإفطار، ليطالبهم بالذهاب للغسل مرة ثانية، يبدو أن آثار التعذيب أكسبته قدرة على القذف المتواصل، أخاف أن تلحقه تهمة جديدة فمن يعرف! بعد الإفطار طُلب منه تجهيز نفسه لأن الإدارة أرسلت في طلبه، الإدارة كان يقصد منها الرائد عادل، فطلب مني أن أعيره بنطالي لأن ثيابه كانت مبللة ومنشورة في الحمام.. خرجت طلباً في الحمام ولبست بنطاله المنشور هناك، وعند رجوعه طلب منّا الإسراع في إعداد أنفسنا، فقد تم نقلنا لتوقيف آخر، ومازال بنطال سامي معلقاً في غرفتي بسبب بلله، لكن الأمر انتهى، فلبسته وأنا أحس بالبلل، وبأني أدخل خيمة كبيرة بسبب حجمه، وبعدها نقلونا إلى توقيف «العَدَميّة» المقدس، أعتذر أقصد توقيف العدلية، حيث تعدم قدرتك على الحلم.

ممر طويل على جانبيه صناديق صغيرة، بهتت عليها الأرقام الدالة عليها، صناديق هي عبارة عن مجرد أرقام، ونزلاء يعيشون داخلها وهم مجرد أرقام، الأيام والأشهر وحتى السنين مجرد أرقام بالنسبة لهؤلاء.

الضوضاء خفّت لدخولنا الممر، رؤوس تطل من الفتحات الصغيرة التي تقع وسط بوابات الزنازين، وتُلحظ دون نسبة عالية من التركيز لحى رثة، ونسبة بياض شاحب تلازم هذه الوجوه، بسبب عدم تعرضها للشمس لمدد طويلة، اصطففنا إلى جوار الجدار، ثم طلب منّا الدركي نزع ملابسنا، تصببتُ فزعاً وارتباكاً.. هل

سيغتصبوننا؟! صرت أحادثني بهمس: أيها الإخوة نحن لا نصلح للركوب! لكن الشرطي أخبرنا أنها إحدى قواعد التفتيش في توقيف «العَدَميّة» رضي الله عنه، وعليه يجب أن نعتاده في كل مرة ندخُل أو ندخَل... أو قد نخرج ثم نعود إليه، غير أن الدركي لم يفته وهو يقوم بواجب التفتيش المقدس، أن يقيس أعضاءنا وكثافة الأعشاب حولها... كانت عيناه تبرق بلحظة استمتاع سادي، ثم طلب منّا وضع أيدينا وراء رقابنا، ونحن نمارس فعل الوقوف والجلوس، ليتأكد من خلو خلفياتنا المباركة من مواد التهريب، وضعوني في زنزانة يلتصق عليها الرقم أربعة، غرفة من سريرين، وعلى كل سريرٍ سريرٌ آخر، يساويه في الارتفاع ويختلف عنه في النزيل أو النزيلين، غرف تمتد مترين في مترين ونصف، يلتصق بظهرها حمام بمساحة متر مربع، يبدو أنهم وضعوه متقشفاً بصورة حادة، إذ نسوا أن يضعوا عليه باباً، فكنّا ننعم بالحوارات الشخصية الدائرة داخله، وطبعاً بالتفاصيل الأخرى التي تصاحبها كنتيجة للحوار الديموقراطي بين شتى أصقاع العالم، ومختلف الأعراق والألوان والمذاهب.

لون الجدار ككل السجون رمادي داكن، تجد عليه بعض الأحرف، وبعض الكتابات المسمارية، وأقصد بالمسمارية أنها كتبت بالحفر على الحائط، كان الجدار «سبورة» نزلاء التوقيف، وأثر مذكراتهم هنا، الغريب أنك تجد التواريخ في ذيل كل العبارات، فمنها بالقرب من الباب جملة تقول: «الطيور لا ترتفع كثيراً عن الأرض»، لم أفهم ما تعني هذه الجملة، يبدو أن الحكيم أو الحمار الذي نحتها كانت لديه رؤيته الخاصة للأشياء، غير أن هذه الجملة

فتحت لي بعد ذلك أبواباً كثيرة، جعلت من «أبو مقهور» ـ وهو الاسم الموقع تحت العبارة ـ رجلاً مقدساً.

محاولة انقلاب في قفص النوارس

عند دخولي الزنزانة لأول مرة لم أر شيئاً بسبب الظلام الذي يكتنفها، احتجت لأكثر من نصف ساعة حتى تتضح لي معالمها، لكنني احتجت إلى نصف شهر حتى أميز الوجوه التي صارت متشابهة، ذلك بمصاحبة الجو الخانق الذي تعتاده في نصف ساعة أيضاً، أي مع تفتح عينيك على صور المكان.

سلمان الميناوي متهم بجريمة قتل صديقته الشرق آسيوية، يسكن وحده الطبقة الثانية من السرير، رجل في عقده الخامس، ينحدر من أصول فارسية، يتناثر الشيب على عارضيه، ويقابله من نفس الطبقة عبدالله، في السابعة والعشرين، متهم بجريمة قتل صديقه البريطاني، بعد حفلة صاخبة ومشادة كلامية، دفعته أن يصنع في جسده أكثر من ثقب «بمفك براغي».. ربما أحس أن صاحبه يحتاج لشيء أكثر صلابة من عضوه، وتحته على اليمين يستلقي خان، لا أذكر ما

تهمته أو اسمه، فخان لقب مثل كلمة السيد في العربية، إلا أنه باكستاني من قبائل البشتو، علمني القليل من لغته، فهو دائم التحدث عن كلبه الصغير، الذي يقول له بفخر «ديليروشا» وتعني تعال، يتحدث بعض العربية بطريقة سيئة، لكن حضوري مثّل له حدثاً جللاً، وذلك لمعرفتي اللغة الهندية تحدثاً، إذ كان يتحدث مع نزلاء الزنزانة بلغة الإشارات لأكثر من ثلاثة أشهر. وفي نفس مكانه يقاسمه السرير أبو أحمد، رجل أو طفل كبير من منطقة رأس الرمان، خفيف الظل، صاحب نكتة تضحكك لكنه يدخل في نوبة بكاء إذا ما فرح كثيراً، تهمته أن دورية شرطة اعتقلته عند خباز حيهم، فألصقت به (قلب نظام الحكم)! على الجانب الآخر يستلقي أحمد شعبان، عرفته منذ اللحظة الأولى، جار لنا، له بنت يقال لها جنان وولد لا أذكر اسمه، في العقد الثالث، أوقفته نقطة تفتيش على مدخل منطقتنا، وحين فتشوه عثروا لديه على منشور، يرجع تاريخه لأكثر من ثلاث سنوات، فاعتقل بتهمة حيازة بيان لجبهة أحرار البحرين، والتفكير بقلب نظام الحكم، صدقاً لا أدري كيف استطاع المحقق معرفة ما يدور في رأسه..

يقاسم شعبان في سريره سيد نجيب، وجدته دورية شرطة يهم بالدخول إلى بيتهم، فاعتقل بتهمة قلب نظام الحكم، قد يثير في أنفسكم الحيرة عدد الساعين لقلب نطام الحكم، لكنها التهمة الوحيدة الجاهزة لاعتقال أكثر من نصف شعب.

نجيب شاب هادئ ولطيف في عقده الثالث، وتحت أو في الممر يجلس سيريلانكي لم نعرف ما اسمه أو سبب توقيفه إلى حين خروجي من هذا التوقيف، أو إخراجي منه، لم يتعلم كلمة عربية

أو إنكليزية واحدة، لكني لا أعتقده متهماً بقلب نظام حكمنا الشريف، أما مكاني أنا فهو بالقرب من الباب، وإذا صار لي مجال للترقي بحسب الأقدمية فسأحصل على الممر، وبعد ذلك سأقاسم أحدهم السرير، أو أحصل على سرير خاص بي، غير أن المجموعة المرحة في الزنزانة لم يرضوا لي النوم بالقرب من الباب، فنام قائد المجموعة شعبان مكاني، وتم الأمر بعد نقاش طويل لم يكن ليصل إلى نتيجة.

كانت هذه الزنزانة منقسمة لأكثر من فرقة، فسلمان منعزل ويغطي سريره بستارة من شراشف السجن، وعبدالله ذو السحنة الداكنة دائم القراءة للقرآن، وإذا دخل الحمام فإنه يظل يصب الماء ولا يخرج إلا بعد ساعة.. والسيريلانكي كان غارقاً في عالمه الخاص؛ بسبب انعدام لغة مشتركة للحديث معه، أما الفرقة الأخيرة وهم خان ونجيب وأبو أحمد وشعبان، فقد كانوا مجموعة مرحة دائمة الحديث.

عبدالله عصبي، يهتم بالنظافة حد الهوس، مما خلق حساسية بينه وبين مجموعة المرح، إذ كانت الأخيرة تنسحب في أي مشادة بينها وبينه، أما سلمان فلم يكن يتدخل في شيء، ولا حتى في واجب التنظيف الأسبوعي، كانت عائلته في الخارج تغسل ملابسه ثم تعيدها له مع فواكه وخضروات، وبعد ذاك النعيم الذي قد يحصل عليه الموقوف، بالنسبة له كأحد المتهمين الجنائيين كان يسمح لعائلته بإدخالها أسبوعياً، وهو الأمر الذي يمنع على الموقوف في قضايا أمن الدولة، غير أنه كان يحتفظ بما يصله لنفسه فقط، بخلاف مجموعة المرح، التي كانت تتقاسم ما يصلها مع نزلاء الزنزانة، بمن فيهم سلمان.

نبوة نورس متأخر

وطن بمساحة مترين مربعين، لغات تتناسل من مصطلحات السجناء، وانتظار قطار لن يمر من هنا، الأشياء في تغير دائم ولا تغير، نخرج الشراشف من مكانها لنعيدها على صوت عبدالله وهو يذكرنا بذلك، ليس هناك الكثير، الكثير هو الحزن، أما الفرح فهو البرودة المتسربة من فتحة الباب السفلية وهي تعبر مكتب مسؤول الشرطة.

الحياة في توقيف «العَدَميّة» عبارة عن فرن انتظار، لكن العيب في هذا الفرن أن الخبز لا ينضج فيه أبداً، فمن يدخل بتهمة السرقة، أو بتهمة التسوّل، يتخرج حِرَفِيا متنوع المهام، بفضل احتكاكه بالخبراء.. نعم هذا السجن مدرسة، مدرسة تعلم الحقد والكراهية والإجرام، مدرسة تعلمك الحقد على الدولة حتى النخاع، مدرسة تدفعك للإيمان بكل ما هو ورائي، وخارج حيز المادة.. الجميل في

هذا السجن غرفة ستة، غرفة جمع فيها كل مشاغبي الدنيا، فلا يمضي يوم إلا ترى مسؤول النوبة مع مساعديه ينزلون بهم التنكيل مع ملحقاته من شتائم مبتكرة.

في أحد أيامي التي قضيتها في هذا الفندق الإلزامي، جيء بمجموعة من البنغلادشيين إلى التوقيف بتهمة العمل دون ترخيص.. يا ألله! ونحن جيء بنا بتهمة العمل دون ترخيص أيضاً! فهذا ما ذكرته مرافعة المدعي العام ضدنا.. لا يهم، لم تعد الأشياء بهذا الوقع الذي عشناه أول مرة، فهي تمضي وتبهت، كوردة على رف في آخر المقهى، أو كجريدة انتهى منها أحدهم، فاستفاد منها آخر كسجادة لخلفيته..

وزّع الموقوفون الجدد على الزنازين، فكان من نصيب زنزانة المشاغبين رقم ستة شاب في عقده الثاني، له ملامح أنثوية جميلة.. ولمدة ثلاثة أيام، والله لمدة ثلاثة أيام لم نسمع أي فوضى من زنزانة ستة، حتى أطباق الطعام صارت تعاد دون أن تمس.. في اليوم الثالث صعد محمد الدمستاني إلى فتحة المكيف، كانت هذه الفتحة وسيلة الاتصال بين السجناء، ونادى سلمان في الزنزانة المقابلة، فلما رد عليه سلمان، أخبره أن لديه مسألة خاصة، طالباً فيها رأيه، وبقدرة الفضول، نزلت على السجن قاطبة حالة صمت مقدس، ليمضي محمد في حديثه:

- سلمان، لقد نبتت على عضوي بعض الفقاقيع المملوءة بالماء.. فأخبره سلمان إن ذلك يطلق عليه «غرر»، وهو يحدث نتيجة احتكاك العضو دون مواد ملينة، لكنه أمر غير خطير.

السكون وعدم الأكل لمدة ثلاثة أيام! ماذا أصاب هذا الشاب؟ ما أعرفه أن ثمانية نزلاء يقطنون الزنزانة، اللعنة يبدو أنهم أكلوه، وماذا حدث لثقبه؟ علمنا بعد ذلك أن الشاب لم يكن يتحرك من سريره بسبب نوبات العمل اليومي التي لم تتراجع إلا بعد ثلاثة أيام.

على نمط الترقيات في دولتنا الكريمة، خصوصاً لمثل من يملك مواهب قيمة، رقّي إلى موزع طعام في السجن، وهو ما يتيح لمناوبي الشرطة قضاء وقتهم السعيد معه أيضاً. لحسن حظنا، لقرابة الأسبوع الذي مكثه هذا الشاب في التوقيف، لم تحصل حوادث عنف تذكر، إلا حادثة واحدة وقعت لأحمد شعبان، كانت لأسباب انتقامية، كان فيها أحمد ضحية حساسية بيني وبين مسؤول الشرطة أبو وليد، إذ استدعى الأخير أحمد وحقّق معه بشأني، مما دفع أحد جلاوزته إلى ضرب أحمد، لكن أحمد رد بالمثل، فتناوشوه وأنزلوا به التنكيل، وعلى إثر هذه الحادثة أيضاً نُقلت إلى توقيف القلعة.

«القلعة» عبارة عن بناء قديم يعود إلى تاريخ الاستعمار البريطاني للبحرين، استفادت منه الدولة أيام مستشار الدولة «بل جريف»، بها سجن وتوقيف، توقيفها عادة للعمال الأجانب الذين تنوي الدولة ترحيلهم إلى دولهم.. وكما هي العادة مع حظي البديع، واستمرار المؤامرة الكونية ضدي، وُضعت مع ثمانية «بتان» مسجونين بتهمة الاتجار بالحشيش، غير أنهم إسلاميون! بعضهم ينتمي لحركة طالبان، تصوروا! بحريني مع مجموعة من طالبان! كنت أحس الغربة تنخر مفاصلي، كانت أيام شهر رمضان معهم

هي أيام محمد مع قريش، إلا أن النبي كان في غار حراء، ومنح حرية الوحي من جبريل، أما أنا ففي غار أيضاً، ولكن ليس حراء محمد، ووحيي يتكلم «البشتو»، ولسبب ما فإن الرب الذي أرسل هذا الوحي أخطأ، إذ بعث وحيه البشتو إلى من لا يفهمها، لذلك أصبح منصب النبوة شاغراً، لخطأ بسيط في أجهزة الوحي المقدسة.

لعل تلك الأيام كانت أتعسها في ذاكرتي مع الاعتقال، وبفضل خبرتي حين كنت سجيناً سابقاً فقد سمح لي بمقابلة مسؤول السجن إثر طلبي، كانت لدي عدة طلبات، أحدها نقلي من هذا الوكر، كان ذلك صباحاً، وحين بلغ اليوم عصره قامت المناوبة التالية بنقلي إلى زنزانة يقطنها بحريني وسعودي، كانا معتقلين ضمن الأحداث.

لم تطل إقامتي في هذه الغرفة لأكثر من أسبوع، بعدها طلب مني إعداد حقائبي للانتقال.. وكالعادة لا تعرف إلى أين.. وجدت نفسي في حافلة معصوب العينين، وعلى جانب جسدي الملقى على أرضية الحافلة أجساد أخرى، كانت تلامس جسدي، ويقع على سمعي شيء من تنفسها المرهق والمضطرب، سمعت أحدهم يتحدث فعرفت أنها مجموعتي، كانت فرحة كبيرة للقائنا مرة أخرى.. ولكن في حافلة أخرى أيضاً، وإلى جهة غير معلومة.. بعد قرابة الساعة أوقفت الحافلة، كانت الأصوات حول الحافلة مرتفعة، بعض الدرك في حالة تأهب، أنزلنا من الحافلة بعنف، ومع دخولنا المبنى الذي كان عبارة عن ممر طويل تقع على جانب منه الغرف، هذا الممر الذي كان أطول ممر عبرته، وذلك لاصطفاف الشرطة على جانبيه، تفصلهم مسافة متر، وفي يد كل واحد منهم

خرطوم ماء، يقوم بجمركة كل عابر من أمامه، وللمصادفة التعيسة كانت غرفتنا في آخر الممر.. عند إدخالنا الزنزانة أوقفنا كلٌ في مقابلة الجدار، حاول طاهر النظر إلى جانبه، فبادره أحد الدركيين بضرب رأسه بالجدار، فنتج من ذلك شج في جبينه.

هذا التوقيف الذي عرفنا أنه «سجن جو» بعد ذلك، سجن بني على أثر ترحيل السجناء من سجن جزيرة جدة، وهي جزيرة عائدة في ملكيتها الآن لفرد من العائلة الحاكمة، تم ترحيل السياسيين إلى معسكر سافرة، وهو معسكر تدريب للشرطة، وذلك بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٧٨م، وبعد الانتهاء من بناء سجن جو المركزي عام ١٩٧٩م، نُقلوا إليه، فكان واجهة تستقبل بها المنظمات الحقوقية، وعلامة على السجون الصحية والنظيفة! لكن القائمين عليه في حالة سهو دائم، فيمكن أن يقضي السجين المحكوم بسنة أكثر من مدة السنة، لسهو بسيط في أجهزة السجن.

لم يكن توقيف جو إلا محطة عبور إلى قاعة محاكمتنا، توقيف لا يسمح بالهمس فيه، يُخرجوننا إلى الحمام مرتين في اليوم، لا يسمح خلالهما للموقوف بالاستحمام.. بدأنا نتحول إلى كائنات بدائية في الشكل والسلوك، ذقوننا بلغت حداً فادحاً، أجسادنا وحدها التي كانت تهزل بوضوح، أصبحنا هياكل تمشي على الأرض، تستقر على هرمها كرة صوف يطلق عليها مجازاً.. رأس.

محاكمة لا تحضرها النوارس

لم يكن الشهود على المنصة، كانوا يحيطون مبنى المحكمة ببدلاتهم الخضراء، والمدعي العام المصري يغط في النوم على طاولة المحامين، كل شيء بارد.. وجوه القضاة، الطاولة التي يضع عليها المحامون أوراقهم، كثافة البلادة التي تحملها وجوه الدركيين.. كل شيء.. كل شيء بارد.. نعم حتى وجه القاضي كانت تتكثف عليه أحكام جاهزة، كان مشهداً سخيفاً، أن نجلس أمام محكمة باردة، وفي معاصمنا قيود باردة تحزها، أن يستلقي أمامنا خطاب الدفوع دون أي دفوع، بقول مختصر.. كانت مزبلة.

أشار القاضي، فطلب منّا المحامي التقدم واحداً واحداً، وبسؤال يقيئه علينا الجالس: «هل أنت مذنب؟» قلت لا، ومن بعدي كان بقية المتهمين في نفس القضية يرددون نفس الإجابة، يعيدنا القاضي إلى أماكن جلوسنا، كنت أتوقعه سيعيدنا إلى قفص الاتهام.. قفص

يمكننا من خلاله متابعة مجريات مسرحيتنا الفجة، أعتقد أن الأفلام لم تكن واقعية بما فيه الكفاية، أو أن فيلمنا تجاوز مخيلة المخرجين، أعتذر إذا كان تهكمي لاذعاً، فلا شيء أحدّ في لذعه من الحياة نفسها..

طلب المحامي من القاضي إذناً بإحضار الشهود، مع إصراره على عدم ذكر أسمائهم.. لماذا؟ بكل بساطة لأنهم في المرة السابقة اعتقلوا كل من طلبوه للشهادة، وبكل ديموقراطية وحرية رفض القاضي طلب المحامي. لم تكن المحاكمة بالنسبة لي مصيراً أنتظره، فالحكم كان جاهزاً قبل أن ينطق به المهرج الذي يشغل منصب قاض في هذا الوقت، لكني لقلة خبرتي كنت متفاعلاً مع هذا السيناريو الرديء.

قاعة محكمة «خفر السواحل» خالية، إلا من ضوء الفجر الذي تسلل لها، كان هذا الضوء شاهد زور أمام محلفين غائبين، ومهرج يشغل منصب قاض، القاعة خالية إلا من محامين ومدعين، وبعض أجساد نحيلة تقف في أعلاها بندقة يطلق عليها رأس، مغطاة بالشعر، كانت عبارة عن لحانا الرثة، وشعر رأسنا الذي أخذ شكلاً آخر، تماشياً مع موضة المحكمة، كنّا هناك ولم نكن، كأنما كنّا نشاهد محكمة تبثها إحدى القنوات الرخيصة عن زمن لم يأت، وعن أناس يشبهوننا لدرجة فادحة، إلا أنهم لم يخرجوا من كهفهم بعد.

أسماؤنا، هل هذه أسماؤنا التي ينطقها هؤلاء؟ ألم نكن أرقاماً في صناديقهم قبل قليل؟ ووجوهنا، نعم وجوهنا لم تكن تضيء.. كنّا

أشباحاً تشهد محاكمة أشباح آخرين، قد يكتشفون في ما بعد أن هؤلاء هم نحن، لكنهم الآن أناس يشبهوننا فقط.. كان ينتابني شعور بالضحك، نعم الضحك، شعرت بي أرتفع عن أرضية المحكمة أكثر من شبر، كأن حلماً تسرَّب إلى نومي دون قصد، والأحداث لم تكن إلا مقتطفات من مسرحية سخيفة، وأدوار لا تناسب أحجامنا الصغيرة.. فالمتهم الأول أنا، والمتهم الثاني أنت، والمتهم الثالث هو، والرابع نحن، الخامس أنتم، السادس... نعم عدنا للغة الأرقام، هذه الأرقام التي أجهل مخترعها لأشتمه، لم أكن لأشغل عن حواري الشخصي، أو دعني أقول نزيفي الداخلي إلا على وقع كلمة «رفعت الجلسة»، جلسة «هل أنت مذنب».

غطّوا أعيننا وألقوا بنا في الحافلة، البرد يتسلل من تحت عصابة العين، وسطح الحافلة يعرف كيف يرض العظام الناتئة من أجسادنا، بعد أقل من نصف ساعة، كانوا يدفعون أغنامهم من الحافلة، لكن نصف ساعة لم تكن لتوصلنا بيتنا في سجن «سهو» المقدس، أقصد سجن جو المركزي، لم يكن وقت التحليل قد حان بعد، إذ كان بانتظارنا أمر آخر، أمرٌ أبقانا نضحك من شدة ازرقاق أجسادنا.

أقفاص قديمة لنصف نوارس

أفرغوا الحافلة منّا، كنّا نوارس لم تعد قادرة على الطيران، نوارس لأننا ننتمي للبحر، نحن أبناء البحر على هذه الجزيرة، ونوارس لأن الطيران عادتنا الوحيدة.

شدني أحدهم من ظهر قميصي وهو يجرني، ثم ألقى بي على أرض رطبة، كانت رائحة المكان دماً متخثراً، ورطوبة تعشش في الجدران، ممزوجة بعطر تبغ قديم، كنت أسمع صراخ النوارس من حولي، وهم يجرون إلى الفندق الجديد، أوقفني أحدهم على الجدار، ارتفعت عصابة العين، لا أرى إلا أرجلاً بأحذية تصل حتى نصف الساق، وبزات خضراء مبقعة.

بعد قليل صار الجو يختنق قليلاً قليلاً، وشعرت بأنفاس من حولي تصل إلى وجهي.. والأرجل، نعم الأرجل ذات الأحذية الطويلة

تزداد، لعنت العصابة التي ارتفعت، لعنت نفسي، أصبح جسدي مستعداً للوليمة المعدة له، قلبي كان ينزل جميع طبقاته الأرضية، فُتحت أحزمة خشبة القانون، وهي عبارة عن خشب تستخدمه قوات الشغب لردع المتظاهرين، لأجدني ونوارسي الصغيرة تحت سطوتها، وسطوة أحذيتهم الأنيقة، كنت أسمع انثلام أضلاعي تحت وقع ضرباتهم، أغمضت عينيّ، واندفعت في الصراخ بطريقة هستيرية، رباه هل هي الآخرة؟ لكنك لم تذكر الأحذية الطويلة في كتابك، ولم تذكر خشبة القانون!

أتانا الصوت بارداً لتخف الوليمة، كان صوتاً يوصل رسالته بحقد: الآن يمكنكم الإنكار، الآن يمكنكم أن تقولوا للقاضي أنكم بريئون أيها المخانيث، خذوهم.

يا لسخرية القدر، أن تكون كلمات هذا القذر رحمة، وأن تكون الحقيقة مكلفة، تحتاج لأكثر من ضلع مكسور، ووجوه مهشمة، أن تحتاج لصنع برلمان أعرج خمس سنين من عمر شعب كامل، ليكتمل مشروعك الإصلاحي ومكرماتك، ونغفر كعادتنا أو ننسى، ربما لأننا طيبون، أو ربما لأننا حمقى، ليس الفرق كبيراً، فأن نغفر أو ننسى يعني أن نعطي القاتل عذراً عن الضحية، وأن نكون حمقى يعني أن نعتذر عن الضحية للسيد القاتل فقط!، ليس الفرق كبيراً، الفرق في أن تكون مؤمناً أو غبياً، يا ابن (الصفافير) يا جدي، لست مؤمناً ولا غبياً، لذلك لن أكون سعيداً.

«رمادا» رمادا»، أعرف أنه اسم فندق أيضاً، لكن فندقي هذا ليس فندقاً عادياً.. فموقعه الكائن فوق مكاتب مأمور السجن ومعاونيه

أعطاه ميزة القرب من الجحيم، ثم إنك لا تعرف فيه النهار من الليل، إلا من خلال نوعية الأكل، أعطته ميزة الاسترخاء، كانت الأضواء لا تشعل إلا فترة الأكل، فهم حريصون على راحتنا أطال الله أعمارهم، سجن رطب، تُخرج منه مرتين لقضاء حاجتك في المراحيض المجاورة، لكن يمكنك قضاؤها على نفسك إذا لم يسعفك وقت «المراحيض».

المختلف في هذا الفندق العظيم، أننا دخلناه بضحك هستيري، فبعد انتهاء الوليمة الدسمة، أو وليمة قولنا «غير مذنب»، ألقوا بنا في إحدى غرفه الفاخرة، فوجدنا أنفسنا نضحك من بعضنا، حين اكتشفنا وجوهنا المهشمة، وبعضنا فقد عدداً من أسنانه، والآخرون احتاجوا لثلاثة أشهر أو أكثر حتى تجبر ضلوعهم وحدها، المميز في هذا الفندق أنهم يقدمون شاياً في المساء، الشاي الأحمر نعمة لا يمكن أن يقدرها إلا سجين، مع الأكلة السحرية «شخر نخر»، وهو ما تبقى من الغذاء طبعاً، ولمن لا يعرف ما هو «الشخر نخر» هو الوجبة الرسمية في السجن، ويمكن تقريبه لتصورك بتخيلك حذاءً قديماً وبعض المسامير مع خضروات غير صالحة للاستهلاك الآدمي، غُليت تلك الخلطة البديعة بالماء، لتوضع على مقدار من الرز المليء بالديدان و«السرو» الأصفر، هذه الوجبة الفاخرة المخصصة للغداء، أما وجبة العشاء فعبارة عن نفس الطبق، لكن يقدم مع خبز «الرجيم»..

وفي مرة حن أحد الأصدقاء لأكل الشخر نخر بعد خروجه، فوصفه لإحدى أخواته لتطبخه له، إلا أنها لم تكن بهذا السوء لتكتشف سر هذه الخلطة السجنية الفاخرة.

السجن للرجال، نعم السجن للرجال، وليس للنوارس، عفواً هل هي مقولة نبي؟ ولمَ للرجال في حين أني وجدت الكثير من النساء بداخله، وإن كن يبدين بشارب، أذكر أن أحدهم علق على هذه العبارة قائلاً: «يا جماعة أنا لست رجلاً فأخرجوني من هنا»، علماً أن هذا الصديق كان من أصلب الذين عرفتهم في السجن، ولو صحت الدراسة الاجتماعية القائلة بأن صداقات السجن من أمتن الصداقات، لوجدت شرطي النوبة أيمن في حضن صاحبي هذا، فقد كانا كثيري الحديث و«البسبسة»! والعهدة على الراوي، وليس السجن للنوارس أيضاً، لأنها تكون نوارس بالطيران والبحر فقط، عندها أدركت حكمة الحمار في توقيف العدمية، «الطيور لا ترتفع كثيراً عن الأرض».

بعد يومين كانت تنتظرنا الجلسة الثانية، أو كانت تنتظرنا المسرحية، دُفع بنا إلى الحافلة، وجدنا أنفسنا في القاعة نفسها، إلا أني هذه المرة بدوت أكثر حمقاً، فمع بداية الجلسة طلبت من القاضي التحدث، أشار إليَّ المحامي عبدالله الشملاوي بالامتناع عن الحديث، إلا أني أصريت كعادتي، سمح لي القاضي بالحديث، فخلعت قميصي، وأظهرت له البقع المتبقية من آثار الضرب المبرح الذي أنزل بنا بعد قولنا «غير مذنب»، سيدي القاضي كانت غير مذنب مكلفة كثيراً، فهل يمكن استرجاعها، وإعادة المحاكمة، واستدراكاً يمكنك أخذ الازرقاق الناتج من كلمتنا الغبية على أجساد أصدقائي، أطرق السيد القاضي ثم نظر إلينا من فوق نظارته الكريمة، وهو يأمر بإحالتنا إلى الطبيب الشرعي، للنظر في الأحداث الجديدة، غير أن الطبيب الشرعي هو أحد الأطباء الجنائيين الذين

يعملون في المختبرات الجنائية للدولة، ولذا أسفر فحصه الدقيق أن أجسادنا لا تشكو من أي عارض ولله الحمد.

بلغنا يوم الدين، تلا المدعي العام ما جاء في تقرير الطبيب الشرعي بتهكم، ثم أعاد التقرير إلى الطاولة، أخرج السيد القاضي المبجل ورقة صغيرة، تلا منها أحكامنا، تذكرت ورقة كلمة الله في مبنى المخابرات، المتهم الأول والثاني والثالث والرابع ثلاث سنوات، أما المتهم الخامس فخمس سنوات، كان المتهم الخامس عبدالرزاق، وأتى هذا الحكم على خلفية إثبات أجهزة الدولة حرقه إحدى المركبات الراجعة في ملكيتها لأحد المواطنين (واشي)، وحكم على حمزة المتهم السادس بسنة مع وقف التنفيذ، إلا أن الدولة أبت إلا أن يقضي سنة ونصف السنة، بعد الحكم بسنة مع وقف التنفيذ، وقف التنفيذ في وطني له دلالة مختلفة.

الفصل الثالث

سجن سهو
النوارس التي تعيش
بالقرب من البحر

أغسطس ماذا يفعل بأجسادنا.. كان العاشر من شهر جهنم، ونحن نتنافس لأخذ مكان بالقرب من المسافة المتبقية من ثوب الباب، الباب الذي لا يبدو أنه أمعن في سلفيته، إذ كان ثوبه طويلاً يلامس الأرض.

نعم.. كان الهواء المتمرد على نظام السجن يتسلل من تحت الباب، كعادتنا ونحن نتسلل إلى مزرعة الحاج عبد علي فنسرق بعضاً من ثمار اللوز، كنّا نتسلل أيضاً إلى فتحة الباب، لكن الفرق هنا أننا تبادلنا تأدية أدوارنا، لدرجة اختلط علينا الأمر، فمن السارق ومن المسروق؟.

«السنطري» الذي يقف في آخر الممر، يمارس فرك عضوه حين يذهب صاحبه لقضاء فرك آخر، لكن بأدب في الحمام،

«السنطري» أيضاً سجين آخر، فحين يعدّون السجناء كنت أعده بينهم، أقول هناك سجين آخر نطلق عليه اسم «سنطري»، ولا تسألوني من أين أتت هذه التسمية، فهناك عدة روايات، وقد تطول العنعنة، لكني سأورد لكم رواية واحدة، هي رواية عبد علي السلمابادي بائع الحشيش عن رضا الجبل القاطن بطشان، عن رضا أبو أذون عن أبيه رضي الله عنهم، أنه قال إنها أطلقت عليهم لأنهم «يتسنطرون»، وهي كلمة دارجة فحواها شيء من الانتظار والهبل، إلا أن هذه الرواية يجب أن تمتحن بعلم الرجال.

زنزانتي تحمل الرقم عشرة هذه المرة، وهي الثالثة في الممر المؤدي لدورة المياه، عرضها متر ونصف وطولها متران ونصف ــ اللعنة عدنا للغة الأرقام ــ ومثلها غرفة ملتصقة بها، لا سقف لها، لكنها محاطة بالقضبان، لم تفتح لأقدامنا إلا في الأيام الأخيرة من حكمنا، فنخرج إليها كأننا سجادة فارسية توضع عرضة للشمس كي تحافظ على ما تبقى منها، زج أفراد قضيتي في هذه الغرفة، سامي حبيب وقد تعارف عليه لقب الشرس، وطاهر أو يونس وحسين المناسف، ثم عبدالرزاق الذي شكل انعطافة مهمة في لغة تحاوري.

أقبع عند الباب على الجهة اليمنى للداخل، والمناسف في الطرف الآخر، وبعدي كان عبدالرزاق وبجنبه طاهر، أما الشرس فكان ينام بيننا، أي في الممر المفترض، ومن سخرية القدر لم أكن على علاقة بأي أحد منهم، فقد شاءت التقديرات المخابراتية أن يكون هؤلاء ضمن قضية واحدة، وهي حكمة لا يعلمها إلا الراسخون في العلم.

كان الجو خانقاً، الرطوبة تنخر عظامنا، هذا المنتجع ولحسن حظ بعضنا ولتعاسة الآخرين يستلقي على ساحل مدينة جو، يبدو أن المهندس أو من اختار المكان كان رومانسياً جداً، ولفرط رومانسيته وضع صندوقه الذي أطلق عليه اسم سجن سهو أقصد جو، وضعه على كتف الساحل، وأي ساحل هذا، الساحل الذي دخل منه الغزاة، نقطة دخول الصحراء إلى المدينة.

وأن تضع نورساً بالقرب من الساحل، ثم تغلق عليه القضبان، يعني أنك تحوله إلى طائر سخيف لا يرتفع عن الأرض كثيراً، شكراً لأبي مقهور على هذه الحكمة.

قد يستغرب البعض لتعليقي على المكان حسناً بالنسبة للبعض، وتعيساً بالنسبة لآخرين، إذ كان كذلك فعلاً، لكن هل يجب أن أخبركم بذلك؟ لماذا أخبركم أصلاً؟ لا أشعر بأن أحداً يريد أن يعرف تفاصيل الحزن، الفرح هو ما يحب الناس معرفته، لكن نكاية بكم سأقول، وإمعاناً مني بمؤامرة التعاسة.

تعاسة لحظ البعض بسبب الرطوبة التي سلخت جلودنا، ولحسن حظ الآخرين لأنها شكلت لهم غطاء، كيف؟، عندما كنت نزيل هذا السجن هرب ثلاثة سجناء عن طريق البحر، وأخذوا طريقهم لدولة مجاورة، ولا أعرف ما قصة الهروب من السجن معي، فكلما وضعت في سجن يهرب منه سجناء، فأول الأمر عندما كنت معتقلاً بتوقيف العَدَميّة المبجل، إذ كان عمري لا يتجاوز السابعة عشرة، استفاد سجناء غرفة رقم ستة من قطعة منشار حديد، تركها عامل الصيانة غافلاً، فقطعوا بها القضبان خلال

شهرين، ويضعون خيوط الغسيل على أثر القص، مما دفع بحراس السجن لخلع جميع الخيوط على القضبان، وهو المكان الوحيد الذي يمكننا فيه نشر غسيلنا، مما شكل لنا كارثة.

تصوروا أن زنزانة العَدَميّة التي تشكل مساحتها مترين في مترين، بها سريران من طابقين، يحصل عليها الأقدم فالأقدم، وبحسب مكانة الموقوف في بعض الأحيان، كما حدث في زنزانة تسعة، عندما أوقف شرطي سابق بتهمة بيع هيروين، فتكريماً لكونه دركياً، ومعارفه في الشرطة، أنزل فقيرالله وهو بنغلاديشي متهم بالقتل، وأعطي مكانه عبدالله.

كان يزج في كل زنزانة بأكثر من ثمانية أشخاص، حتى وصل بعض أفراد الزنزانة الواحدة إلى عشرة، لا تسألوني مجدداً كيف ينامون، فحتى أن آينشتاين لا أعتقده سيعرف ذلك، كما يقول حكيم زنزانتنا، أن الحاجة أم الاختراع.. تصوروا أين يمكن لثمانية أشخاص نشر ثيابهم؟ في حين لا مكان لهم في الزنزانة.

نزلاء بتهمة الطيران

أن تكون نزيلاً في فندق الدولة، يعني ذلك أنك معفى من كل الاستحقاقات، فالدولة تكفل لك المأكل والمشرب ومكان المبيت، وتكفل لك الإعفاء من كرامتك أيضاً، هذا إذا بقيت لك كرامة بعد دخولك حمام المخابرات الكريم، فمقاس كبرياء السجين لا يتناسب مع القياسات العالمية لسجن سهو قدس سره الشريف، إذ كان الرعب هو اللغة السائدة، فأنت رهين لمزاج مسؤول النوبة «الشفت»، سواء صالح اليماني، أو سليم البلوشي، أو أبو فهد الطالع من دير الزور، وهذا المزاج يتوافق كثيراً مع الشأن المحلي، فكلما تصاعدت الأحداث والمواجهات بين أجهزة القمع والناس خارج السجن، كان مزاج هؤلاء مواتياً للتنكيل بنا، وعملت أجسادنا كثيرمومتر، فمن أثر «الكيابل» على أجسادنا يمكننا معرفة درجة المواجهة في الخارج.

وبحسب ما وصلنا من علم فإن هؤلاء العلماء الأفذاذ، أقصد طبعاً مسؤولي نوبة الحراسة، يعتبرون قوانين السجن من المقدسات التي يمكن الاجتهاد فيها ومقابلها، وهو قانون مرن للغاية، يهتم بالمتغيرات سواء رأى أصحاب الرتب الأعلى، أو في حال اختلف أحدهم مع زوجته ولم تعطه من الخلف، فإن السجناء تنزل عليهم لعنة عدم إتيانه زوجته من «أنى شئتم» المكانية، ويحتمل أن يذهب ضحية الأمر بعض السجناء إلى الانفرادي، أو يسلخ جلد أحدنا في غرفة المسؤول بالقرب من البوابة، المسافة أكثر من عشرين متراً، مع الكثير من حوائط الأسمنت، إلا أن ذلك لا يمنع معجزة التأوهات والصراخ من أن تصل لكل أرجاء السجن، السجن الذي يدخل نوبة صمت خاشعة، يختم فيها القرآن والأدعية المأثورة، بخشوع من رقبته على النطع.

في إحدى هذه المصادفات، أو الكوارث الطبيعية التي طبعت ذلك اليوم في ذاكرتي، حين قام سجين بمحادثة أحد الموقوفين في الجهة المقابلة، لمعرفة أخبار أبو يعقوب، أبو يعقوب هذا الذي أنزلت شتائم الدنيا عليه بسبب ما حصل بعد ذلك، فبعد وصول خبر المحادثة إلى مسؤول السجن أُنزل عقاب جماعي علينا، وهو الأمر المتعارف عليه، وانعكاساً لما هو قائم وراء جدار السجن.. جمع قوات الشغب ما يقارب الأربعين فرداً، وكان فارسهم المتقدم على صهوة جلاديه، ثم دخلوا غرف الموقوفين، وأنزلوا بأمهاتهم حكم الله على أرضه، وما إن وصلوا إلى السجناء أو المحكومين، حتى أصبحت غرفة ثمانية كبش الفداء، لكنهم عند دخولهم غرفة رقم تسعة، كسر عيسى قمبر قنينة زجاجية، وطلب من قوات الشغب

التقدم، قائلاً لهم «إنكم ستدخلون لكن على جثتي»، كان فيلماً لا يمكن تصوره، على إثر مشادة كلامية، اكتفى سليم البلوشي بالتهديد الكلامي، وهو ما نال باقي السجناء.

عيسى قمبر قضية بمفرده، ولا يمكنني سرد سيرته هنا، لكنني سأحاول إشعال ذاكرتي ببعض تفاصيل حكايته.. في خضمّ الأحداث الجارية في البلاد، قتل عيسى عريف عرفاء من الدرك على مدخل قريته بسكين، وخرج بسيارته إلى دبي، فأرجعه الإنتربول الدولي إلى البلاد، حكم عليه القاضي بالإعدام، وزج به في السجن، هو ومجموعة من أصدقائه مكبلين بالسلاسل، من الرقبة واليد حتى الأرجل، إلى حين تنفيذ الحكم، فكان يوقظنا في أي تقلب له وهو نائم.

عيسى عيسى، آهٍ يا عيسى، كان ابن السابعة والعشرين، يضحك دائماً، وعندما يواعدك بشيء يضرب على رقبته وهو يشير لها قائلا: بهذه. إشارة إلى أنه يفي بوعده، وهو من حمل لي خبر اعتقال أخي، بالنسبة لي الخبر كان صدمة، كيف أتصور أخي وأختي وأنا من عائلة واحدة في السجن، أهلاً بالأنظمة العادلة والديموقراطية حد النخاع الدركي.. غير أني لم أكن الوحيد على هذه الحال، كل الذين أعرفهم كان لهم أقارب في السجون، إذ يعد ذلك دورة إلزامية للشعب، لتوسيع مداركه وتثقيفه بطريقة سريعة، وحين أخذ عيسى بحجة الكشف الطبي، نزل السجناء في نوبة صمت، وعند المغرب تسلل البكاء والعويل كعدوى، وبعد ذلك بيوم عرفنا عن طريق المذياع المهرب أنه أعدم، كانت طريقة الإعدام أن اصطف رماة، وأوقف أمامهم عيسى، فوضعت أكثر من

عشرين طلقة في صدره، أضربَ بعدها السجناء لبعض الأيام، لكن سرعان ما عادت لحياتهم طقوسها.

يا عيسى يا صديقي إذا أردت أن تموت فمت مرة واحدة، ولكن.. عش قبل ذلك. فلماذا تحاول الموت بعشرين طلقة؟ هل تحتاج لكل هذا الموت لتحتفل جيداً، ومن أجل ماذا متَّ؟ من أجل الدين؟ هل يحتاج الدين وهو الذي أنزل من أجلك أن تقلب الهرم وتصبح أنت من أجله؟ أعرف أني شاعر ولست حكيماً، لكن الفرق بين الأديان والشعراء بسيط جداً، الأديان تحاول إنقاذ الإنسان، الشعراء يعلمونه الحياة، يا عيسى أشعر بك فرحاً، كنتَ سعيداً بحكم الإعدام عليك، كنت مؤمناً، والباقون كانوا أغبياء، كلكم سعداء الآن، إلا أنا، إذ لم أكن مؤمناً أو غبياً.

لكن.. كيف دخل عيسى إلى بيوتكم؟ وكيف أقنعتموه بالبقاء، كانت له عادة أبناء المدينة في الطيران، كان نورساً مثلنا، لكنني صرت أراه ينتقل من بيت لبيت، كأنه يحمل نفسه، يمشي كعادته بأكثر من شمس، وأقلّ من حزن، وحين خرجت من السجن، كان يتبع خطواتي إلى حارتنا، ويضع في كل خطوة قطعة من صدره، يا عيسى لا يمكن زراعة الأرض بالأشلاء، لكنه دون أن يسمعني يواصل غرسه، نعم كان مؤمناً.

نورس يحتفل بزواجه الأول

كان السجناء يتحلقون حول الجدد منهم، القادمين من الشوارع أو المخافر، لا أكذب إذا قلت إن غالبيتهم يجب أن يحجزوا بسجن الأحداث، أكثرهم كان لا يتجاوز سن العشرين، كانت مجموعة من منطقة الدراز، لا يتجاوز أكبرهم سناً التاسعة عشرة، وكان بينهم شاب يسرد حكاية أحد أصدقائه، انتبهت له يقول: الرصاص يلاحق أجسادنا، والموت يمشي في بدل خضراء، ينزل أصحاب البدل من عرباتهم، الموت يمشي الآن في الشارع، نعم الموت كان ينطلق من ماسورة في يد أجنبي، فهل كنّا نحب الموت؟ صدقوني لم نكن نحبه، لكننا لم نكن نملك خياراً آخر، أجسادنا الصغيرة لم تكن تحتمل الركض دائماً.

عبدالقادر اسحب رأسك من الممر، عبدالقادر الرصاص يطلق الآن، قوات الشغب تطلق بكثافة، عبدالقادر يسقط، سقط الجدار بالقرب

من عبدالقادر، سقطت أشجار جيرانهم في الحقل، سقط الإناء من يد أخته وهي تعيده إلى الرف، المشهد خاطف، هناك من يضغط على زر التسريع، صارت المشاهد غير واضحة، هناك دم يغطي جانب رقبته، وعبدالقادر ينطق كلمات لا تفهم، الإضاءة خافتة، لكن الدم ينزل من تحت قناع وجهه، من طرفه الأيمن ينزل، والضاغط على زر التسريع يستهلك قوته في الضغط، حمله بعض الرفاق إلى الرصيف المحاذي، ثم إلى أحد البيوت.

صباحاً كنت أرفع عن ثيابي شوك العوسج، لقد نمت تحت حراسته، لم أشعر بالمكان أو الوقت، هو نفسه الصباح الذي قرئ فيه القرآن من مأتم منطقتنا، قرئ القرآن لأن جسد عبدالقادر الفتلاوي تسربت إليه البرودة، ضاقت روحه على الجسد الضيق، هل كنّا نحب الموت؟ سأكرر عليكم نفس الإجابة، نعم لا نحب الموت، لكن الرصاصة التي سكنت رأسه لم تكن تعرف ذلك، لم يخبرها مطلقها أن هذا الشاب العشريني لم يخرج من بيته ليموت، كان بكل بساطة يريد رغيفاً، يريد مترين ليريح عليهما جسده المنهك من عمله في حفر الشوارع، الشوارع التي يستخدمها نفس الدركي الذي أطلق عليه الرصاص، وهو قاصد إلى إيداع راتبه في حساب أبيه أو أبنائه، هذا الأب أو الأبناء في باكستان أو الهند أو سورية أو اليمن، كان عبدالقادر يريد مدرسة جيدة لأبنائه في المستقبل، فأعطوه رغيفاً أحمر، ومترين من الأرض ليريح جسده المنهك، وأعطوا أبناءه إعفاءً من الوجود.

كان صباحاً مختلفاً، الناس يحملون جثمان عبدالقادر وهم يولولون ويصرخون، يطوفون به على البيوت والأحياء، كانوا يُشهدون

البيوت على ظلامته، يشهدون الأشجار والشوارع التي مشى يوماً عليها على قتله، وجدتني أسير مشدوهاً وراء نعشه.. كم الساعة الآن؟ لقد توقف الزمن، الساعة لا تعمل الآن، وحده الموت هو الذي تستمر مناوبته، وصل الناس إلى الشارع العام، الشارع يسكنه لا أحد، كل الناس كانت وراء نعشه، رأيت الأشجار تترك مكانها وتتبع نعشه، رأيت العصافير تتبعه، بدأت أشك في جثمانه، فمن يختبئ فوق، القماش الأبيض يخفيه، إنه أبيض بفداحة، إنه الآن يضيء أكثر، فيتبعه الناس أكثر.

وجه علي يغرق في منطقة وسطى، منطقة هي مزيج من البكاء والدهشة، والشبع من رواية الحادثة، لكن لكل رواية أصابع تشعل تفاصيل مختلفة في ذاكرة الراوي، كان علي يجمع أحداث روايته، ويحاول أن يكون محايداً.. أعتذر قليلاً هنا، لا أعرف لماذا قلت محايداً، هل لأنه الشاهد الحي على الموت، أم لأنه الراوية الذي يكون محله قريباً من الخطر، لكنه في مأمن منه، كيف يكون محايداً وهو أحد خيوط القصة، هل قلت قصة؟ هل أصبح الإنسان مجرد قصة في زمن ما، ليصبح بعد ذلك تاريخاً، كيف يمكننا تجميد لحظاتنا الإنسانية، لا لننتقم من أجلها، بل لنتصالح معها، ونهبَ صاحبها حقه في البقاء.

الفصل الرابع

غيمة تدخل غرفة نورس

ضوء الشمس ينزل على عيني، الطريق يستلقي أمام الشاحنة التي تقلنا إلى الحرية، كان النهار مختلفاً، كان وضع يدي خارج النافذة، والنظر عبرها مختلفاً، خيط حذائي الذي لم أحسن ربطه مختلفاً، كنت أخرج من شرنقتي خفيفاً، لكن الأشياء داخلي تغيرت، نعم تغير المكان، تغيرت الأسماء، اختلف تذوقي للأشياء، أدركت أني كبرت الآن أربع دقائق، صرت أكثر حزناً، وأكثر وسامة.

هذه المرة الطريق من سجن سهو إلى المنامة لم يكن طويلاً كعادته، كان أقصر، كان سريعاً كحلم، وجميلاً كحافلة تأخذ ركابها إلى الجنة، هذه الجنة لم تكن إلا خارج السجن، أن يكون لك الحرية في الخروج من الصناديق.. أن تذهب وحدك لتبتاع علبة تبغ، أن

تأكل من مطبخ البيت، لم تكن الجنة مثالية بالنسبة لي، كانت أقل بكثير مما يسعى له الآخرون، في تلك الفترة لم أكن أحتاج لرب، كنت في حاجة لضم وتقبيل وفرح، بكل بساطة كنت أشتاق بيتنا القابع في أطراف البلاد القديم.

دخلنا القلعة، تسلّمنا شرطي بثياب مدنية من الحافلة، أخذ أثر أصابعنا ثم دفعنا للحافلة مرة أخرى، هذه الحافلة التي ستنزلنا على بعد أمتار من بوابة القلعة، بالضبط على رصيف في المنامة، لم أصدق أولاً أن بإمكاني أن أنزل وحدي، كنت أنتظر أمر السائق لنا بالصعود، لكنه لم يفعل، بل فتح باب الحافلة وبنظره دفعنا للحرية، للطريق والرصيف والمنامة.

وقفنا كما وقفت الابتسامة على وجوهنا، لم نكن نجرؤ على الابتسام، كنّا نشعر بألفة السيارات المارة من حولنا، نحس الألوان على الجدار اختلفت، أصبحت أكثر أناقة، والطريق الإسفلتي تحت أقدامنا كان يعرف بيوتنا، ويحرّضنا على الذهاب إليها، صرت أعتقد أنه لا يمر إلا من بيتنا، العالم توقف هناك، الأشياء من حولنا تجمدت، خرجنا من الكابوس المزعج، خرجنا من حقيقة الواقع، من الطوابق السفلية إلى الشمس، الشمس التي تلمس أجسادنا بأمومة، وتغسل وجوهنا بأصابعها.

التقطنا سيد محمد وهو يمر بسيارته، عرف من خلال لحانا وثيابنا الرثة، أننا للتو خرجنا من السجن، انتشلنا من الشارع، وعند استوائنا في سيارته دون أي حديث سألنا: متى خرجتم؟

كان السؤال بسيطاً لكني ارتبكت، فهل خرجنا فعلاً؟ فماذا يفعل كل هذا السجن في ثيابنا؟ وماذا يفعل جالساً في ذاكرتنا؟ حين خرجنا من السجن مرضنا به أكثر، صار هذا السؤال مرعباً بالنسبة لي، كيف أعيش الآن دون مسؤول شرطة، دون وقت محدد للأكل، دون مكان محدد للنوم؟ الأشياء يا سيد اختلفت.. كنت أعتقدني سأقول له ذلك، غير أن الشرس بادره بقوله: الآن.

نعم.. الآن خرجت أجسادنا من صناديقها، لكن ماذا نفعل بكل هذه الذاكرة على أجسادنا، متى يمكنها الخروج من السجن، لقد نسينا ذاكرتنا يا سيد مع الأمانات التي أخذت منّا قبل دخولنا السجن، ولم نسترجعها لأنها بكل بساطة فقدت، أو يمكن استبدال الكلمة بأخرى أخفُّ وطأة، فالدولة لا يمكن أن تفقد شيئاً فنقول سرقت، لقد منحنا الدولة يا سيد بعضاً من عمرنا، وخرجنا فرحين، نحن يا سيد... أيقظني من حديثي مع نفسي وهو يعطيني هاتفه المحمول، طالباً مني الاتصال بالأهل وإخبارهم بخروجنا، انزلقت الأرقام من أصابعي كمن يحفظها عن ظهر حب، تذكرت الأرقام دون عناء، بعد ثلاث سنوات ونصف السنة تذكرت رقم هاتفنا، كانت الأرقام تأتي طواعية، فهل يمكننا استرجاع أحلامنا بهذه السهولة؟ وصلني صوت أختي فاطمة، أخبرتها من أنا، لكنها دون أن تستمع لبقية الحديث ذهبت في طلب أمي، وهي تصرخ: علي على الهاتف، أغلقت الهاتف دون الانتظار وأعطيته للأصدقاء.

بعد سنة صارت الشمس تبقى في بيتنا دون إذن، والعصافير بنت بيتاً لها على النافذة، والمطر يأتي خفيفاً، لكن السجن كان يختبئ تحت جلدي، كبرت الآن خمس دقائق، صرت أصطاد أقماري ثم أطلقها، صار قنديل البحر نورساً، لكني مازلت حين أمر بهذه المرأة التي تدعى المنامة أصاب بالحنين، أتجول بين أزقتها، أشم رائحتها، البيوت التي تسند أكتافها إلى بعض، الحواري والدكاكين التي لم تعد تعرف وجهي، كلها كانت جزءاً من حنيني لهذا المكان، المنامة لم تكن مدينة جميلة، لكن لديها ذاكرة تسع العالم، يجب أن تفهم أن المنامة أول مدينة خلقت للحب، هذه التي تهرب من بيتها بحجة القلب، وتذهب إلى البحر، كان «مؤمن» ما يزال يلامس نهدها ويضيء مع ليالي القدر.

المقهى مزدحم، والعابرات يسرعن إلى الطاولات المجاورة لنا، كنّا وحدنا نحتل الطاولة في زاوية المقهى، عباس يقول: الأكيد أنه كان مسرعاً، يبدو ذلك واضحاً من آثاره، وإلا فكيف تفسر كل هذه الأخطاء، هل يمكننا اعتبارها بقية أكوام الطين المعدة للفرن، لكن بسبب اختلاف في أمزجة الملائكة أسرعوا في رميها إلى الأرض، وقد يعطي ذلك تبريراً لكل هذا التفاوت أيضاً. لكن مازلت غير مقتنع أو دعني أقول غير متجاوب مع قناعة كون كل ذلك حكمة، غير أن إدراكها يحتاج لعقل إله، لأنها ممتنعة عن البشر، فإذا كان كذلك فلماذا يخلقها لنا، ليرينا عضلاته وقدرته مثلاً؟، ولنذعن إلى جبروته؟، جيد أذعنّا لهذه الجبروت، هل يعني ذلك انتفاء التفاوت المنسوب لغير العدل في كل هذه

الأخطاء، نعم أخطاء، وإلا فكيف يمكن نسب القبيح له، فبذلك تتفاوت ذاته.

يرد حسين: إذاً دعني أقترح عليك أمراً آخر، ولنفرض أن مدير تحرير صحيفتك دعاك لأمر خاص وسري، وفي اجتماعه قال لك إن لديك مقابلة حصرية مع الله، فماذا ستعد من أسئلة.

عباس وهو يعيد نظارته إلى مكانها: يبدو الأمر مربكاً، لم أكن أتصور أن بالإمكان مقابلته، أحد الأصدقاء قال إنه سيستقيل، لأن رئيس التحرير غبي إذ يعتقد أن الله موجود، وآخر قال إنه سيسأله عن سبب ملاحقة اللعنة له، وكانت هناك اقتراحات كثيرة، غير أنها لم تغر فضولي، بحيث يحتاج الله إلى مدة كافية لإعداد أسئلة له، فمنذ تاريخ البشرية والله يطاردنا، فكيف تريد مني في ساعتين أن أضع كل الأسئلة التي اقترحتها البشرية عليه، منذ تساءل أبونا إبراهيم عن إلوهية الشمس والقمر، وبصفتي لست نبياً لآخذ الوصايا كما هي، ولأني - وذلك حمدٌ لأبي - لم يسمني غير علي، فسأقترح أن أنقل وصاياكم وأسئلتكم له، لأعفي نفسي من مساءلة المتشددين، ومن غضب الله من الأسئلة التي ستعكر صفو بهائه.

إلى الطاولة المجاورة سحبت نفسي، بعيداً عن الحوار المفتوح حول لقاء الله، كنت أقول لرباب: أتدرين؟ اليوم كعادتي، أنهض من نومي لألصق جسد السيجارة على شفتي، ثم بعد

أن أحترق بالتبغ الطازج، أحاول الاستحمام، الأشياء في مكانها ككل صباح، مفاتيح سيارتي بالقرب من جهاز الكمبيوتر، وساعتي المزعجة بالقرب منه، ليس هناك قهوة صباحية، هناك وعاء تسخين الماء السخيف بجوار مكتبي، وبجنبه قطع السكر البيضاء، وأكياس الشاي الغبية، أعرف سأضع ثلاث قطع سكر وكيس شاي، ثم أعطي تصريحاً للماء أن يغلي، لأنساه كالعادة أيضاً.

وكالعادة سأصاب بحالة كآبة ترافقني كل صباح، وسأقف قليلاً أمام مكتبي مواعداً نفسي بترتيبه لاحقاً، غير أن «لاحقاً» هذه لا تأتي إلا مرة في الشهر، ربما لأني أعتقد أن مكتبي أنثى، تعيد ترتيب نفسها كل شهر، وكأنثى مدللة أضع عليها ثقل كتبي وأوراقي، ورماد سجائري الذي يسقط خارج المنفضة، هل الرجال لا يحسنون التصويب؟ هل هي حالة نفسية تعتري الرجل؟ إذاً من أين يمكنه إنجاب كل هؤلاء الأطفال، فحتى الجيران مصابون بنفس المرض، لذلك أعتقد أن اليد الإلهية تتدخل في الموضوع بعض الأحيان، وهذه اليد الإلهية هي التي ترضي زوجاتهم أيضاً.

يقطع تفكيري الهاتف، تتصل زميلة من الصحيفة، وتسألني ماذا سأغطي للصحيفة هذا الشهر، أشعر بالحرج قليلاً، أردت أن أقول لها إن الرجال ليست لهم عادة التغطية، وبقدر ما يحسنون فتح أزرار الجسد، يحسنون الكسل، وأنا أحب كسلي الدافئ، وأعتقده جزءاً من تكويني الإلهي، وإلا فكيف أصبح رجلاً دون أن أكون فوضوياً.

الحوار على الطاولة الأخرى يعيدني إليها مرة أخرى، لكن هذه المرة من خلال السماع فقط، فهل حقاً كنت أحب الله؟، وهل أنا سعيد؟ شكراً أبو مقهور على حكمتك، يبدو حقاً أن الطيور لا ترتفع عن الأرض كثيراً، لكنني فقط.. لم أعد أحب الله عند الساعة العاشرة.

الـمؤلف

مواليد عاصمة المنامة، في العام ١٩٧٥م، لأب بحراني وأم منامية.

صدر له:

وجهان لامرأة واحدة، الكنوز الأدبية، شعر.

المدينة الأخيرة، المؤسسة العربية، شعر.

العصيان، دار المدى، شعر.

دلونيات (١)، دار عالية، شعر.

دلونيات (٢)، دار كنعان، شعر.

تشتعل كرزة نهد، الانتشار العربي، شعر.

يهود البحرين، دار خطوات، تاريخ.

البهائية، دار فراديس، تاريخ.

"يقطع تفكيري الهاتف، تتصل زميلة من الصحيفة، وتسألني ماذا سأغطي للصحيفة هذا الشهر، أشعر بالحرج قليلاً، أردت أن أقول لها إن الرجال ليست لهم عادة التغطية، وبقدر ما يحسنون فتح أزرار الجسد، يحسنون الكسل، وأنا أحب كسلي الدافئ، وأعتقده جزءاً من تكويني الإلهي، وإلا فكيف أصبح رجلاً دون أن أكون فوضوياً".

(من الرواية)

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-497-2
9 789953 214979